

كلية الاداب  
قسم التاريخ  
محاضرات مادة ( تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر الراشدي و الاموي )  
م.م. وداد محمد عبد الله  
المرحلة الثانية ( الصباحية و المسائية )  
2026 – 2025  
المحاضرة (4)  
الجزء (2)

---

الإصلاحات الإدارية في عهد الإمام عليّ عليه السلام حين تولّى الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام الخلافة بعد مقتل عثمان سنة 35هـ، وجد أمامه دولة واسعة الامتداد لكن بنيانها الإداري أصابه الكثير من الوهن والخلل. فقد شاعت المحاباة في التعيينات، وانتشرت الامتيازات الطبقية وسيطر أصحاب النفوذ والوجاهة على موارد الأمة. ولهذا أدرك الإمام أنّ أول ما يحتاج إليه المجتمع هو إصلاح إداري شامل يعيد للدولة الإسلامية هيبتها وعدالتها. بدأ الإمام عليّ إصلاحاته الإدارية بخطوة جريئة تمثلت في عزل الولاة الذين كانوا موضع شبهة أو شكوى من الناس حتى وإن كانوا من ذوي القرابة أو ممن لهم مكانة سابقة. وقد أثار هذا القرار غضبًا واسعًا عند طائفة من المنتفعين الذين فقدوا مناصبهم، لكنه عبّر عن مبدأ راسخ لدى الإمام: أنّ المنصب تكليف لا تشریف، وأنّ الولاء ليس للأشخاص وإنما للحق والعدل.

كما شدّد الإمام على أن تكون المعايير في التولية هي الكفاءة والأمانة، لا العصبية ولا القرابة، فقال في عهده لمالك الأشتر: «ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارًا ولا تولّهم محاباةً وأثرة، فإنّهما جماعٌ من شعب الجور والخيانة». هذا التوجيه يُبرز رؤيته بأنّ الإدارة العادلة لا تُبنى على الولاء الشخصي، وإنما على الخبرة والنزاهة.

ومن أهم إصلاحاته أنّه ألغى الامتيازات المالية التي كان بعض الولاة والأشراف يتمتعون بها في العهود السابقة وفرض المساواة في العطاء، إذ جعل معيار العطاء هو الحاجة والعمل لا النسب أو القرب من السلطة. فساوى بين العربي والموالي، وبين قريش وسائر القبائل، مما أثار امتعاض كبار القوم، لكنه رسّخ مفهوم العدالة الاجتماعية. وقد عبّر عنه بقوله: «ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة».

ومن الإصلاحات اللافتة أنّه أقام نظامًا صارمًا لمحاسبة الولاة، فكان يتابع أخبارهم عن طريق الرقباء والعيون، ويراقب سلوكهم المالي والإداري بدقة. فإذا بلغه عن أحدهم خيانة أو ظلم لم يتردد في عزله ومحاسبته. وقد كتب إلى بعض عمّاله: «بلغني عنك أمر، إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وأخزيت أمانتك»، مهددًا إياه بأشد العقوبة إن ثبت عليه التجاوز.

كما اهتم الإمام بإصلاح نظام الضرائب والخراج، فأمر بأن تُجبي الأموال بالعدل لا بالقهر، وأن تُراعى ظروف الفلاحين وأهل الأرض، مذكرًا ولاته بأنّهم مسؤولون أمام الله قبل أن يكونوا مسؤولين أمام الخليفة. وكان يقول: «لا تبغين للناس في خراجهم كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدًا، فإنّي سمعت رسول الله يقول: ملعون من ظلم أجيرًا أجره».

الإصلاحات الإدارية في عهد الإمام عليّ عليه السلام حين تولى الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام الخلافة بعد مقتل عثمان سنة 35هـ، وجد أمامه دولة واسعة الامتداد لكن بنيانها الإداري أصابه الكثير من الوهن والخلل. فقد شاعت المحاباة في التعيينات، وانتشرت الامتيازات الطبقية وسيطر أصحاب النفوذ والوجاهة على موارد الأمة. ولهذا أدرك الإمام أنّ أول ما يحتاج إليه المجتمع هو إصلاح إداري شامل يعيد للدولة الإسلامية هيبتها وعدالتها.

بدأ الإمام عليّ إصلاحاته الإدارية بخطوة جريئة تمثلت في عزل الولاة الذين كانوا موضع شبهة أو شكوى من الناس حتى وإن كانوا من ذوي القرابة أو ممن لهم مكانة سابقة. وقد أثار هذا القرار غضبًا واسعًا عند طائفة من المنتفعين الذين فقدوا مناصبهم، لكنه عبّر عن مبدأ راسخ لدى الإمام: أنّ المنصب تكليف لا تشریف، وأنّ الولاء ليس للأشخاص وإنما للحق والعدل.

كما شدّد الإمام على أن تكون المعايير في التولية هي الكفاءة والأمانة، لا العصبية ولا القرابة، فقال في عهده لمالك الأشتر: «ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختبارًا ولا تولّهم محاباةً وأثرة، فإنهما جماعٌ من شعب الجور والخيانة». هذا التوجيه يُبرز رؤيته بأنّ الإدارة العادلة لا تبني على الولاء الشخصي، وإنما على الخبرة والنزاهة. وتتجلى إصلاحات الإمام عليّ الإدارية أبهى تجلٍ في عهوده إلى ولاته، وعلى الأخص في عهده الخالد لمالك الأشتر، ذلك العهد الذي عدّ دستورًا للعدل ومثالًا يُحتذى في الإدارة الرشيدة. فقد رسم فيه معالم الحكم العادل، فكان مرآة صادقة لروح الإسلام في المساواة، ورعاية الفقراء، ومحاسبة العمال.

ومن أهم إصلاحاته أنّه ألغى الامتيازات المالية التي كان بعض الولاة والأشراف يتمتعون بها في العهود السابقة وفرض المساواة في العطاء، إذ جعل معيار العطاء هو الحاجة والعمل لا النسب أو القرب من السلطة. فساوى بين العربي والموالي، وبين قريش وسائر القبائل، مما أثار امتعاض كبار القوم، لكنه رسّخ مفهوم العدالة الاجتماعية. وقد عبّر عنه بقوله: «ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة».

ومن الإصلاحات اللافتة أنّه أقام نظامًا صارمًا لمحاسبة الولاة، فكان يتابع أخبارهم عن طريق الرقباء والعيون، ويراقب سلوكهم المالي والإداري بدقة. فإذا بلغه عن أحدهم خيانة أو ظلم لم يتردد في عزله ومحاسبته. وقد كتب إلى بعض عمّاله: «بلغني عنك أمر، إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وأخزيت أمانتك»، مهددًا إياه بأشد العقوبة إن ثبت عليه التجاوز.

كما اهتم الإمام بإصلاح نظام الضرائب والخراج، فأمر بأن تُجبي الأموال بالعدل لا بالقهر، وأن تُراعى ظروف الفلاحين وأهل الأرض، مذكرًا ولاته بأنهم مسؤولون أمام الله قبل أن يكونوا مسؤولين أمامه وكان يقول: «لا تبیعن للناس في خراجهم كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدًا، فإنّي سمعت رسول الله يقول: ملعون من ظلم أجيرًا أجره».

لم تكن إصلاحات الإمام عليّ عليه السلام مقتصرة على عزل الولاة ومحاسبتهم، أو ضبط النظام المالي والإداري، بل امتدت إلى حياته اليومية وسلوكه الشخصي، ليكون قدوة للولاة والرعية معًا. فقد أدرك الإمام أنّ العدالة لا يمكن أن تُفرض بالقوانين وحدها، بل تحتاج إلى قدوة حية يعيشها القائد في طعامه ولباسه ومعيشتة.

كان الإمام عليّ يأكل الطعام الخشن من خبز الشعير الذي تُنقى قشرته فيُبقية كما هو، حتى قيل إنّ يده كانت تشققت من شدة عجنه بيده. وكان يلبس الثياب البسيطة الرديئة، لا يتفاخر بلباس ولا يتزين بزينة، قائلاً: «ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه». لم يكن ذلك عجزًا أو تقشفًا مجردًا، بل كان مواساة للفقراء والأيتام والأرامل، حتى لا يشعر ضعفاء المجتمع أنّ الحاكم يعيش في رفاة وهم في شقاء. وقد عُرف عنه أنّه كان يجوب ليلاً أزقة الكوفة يحمل على ظهره جرابًا فيه طعام، يطرّقه إلى بيوت الأرامل والأيتام دون أن يعرفوه. وكان إذا جلس مع الأيتام شاركهم في أكلهم، وربما لعق أصابعه معهم ليدخل السرور

إلى قلوبهم. وقد رآه بعض أصحابه يومًا وهو يلعب الأيتام ويضحكهم، فقيل له: أتفعل هذا وأنت أمير المؤمنين؟ فقال: «إنما هم يتامى، فأحبت أن أكون لهم أبا».

هذا السلوك الشخصي لم يكن عملاً عاطفياً فحسب، بل كان جزءاً من فلسفته في الحكم؛ فهو الذي كتب لولاته: «واشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبغاً ضارياً تغتنم أكلهم». فكما ألزم ولاته بالرحمة والعدل، ألزم نفسه بهما أولاً، فصارت حياته العملية تطبيقاً واقعياً لما دعا إليه في عهده وخطبه.

وتتجلى إصلاحات الإمام عليّ الإدارية أبهى تجلٍ في عهده إلى ولاته، وعلى الأخص في عهده الخالد لمالك الأشتر ذلك العهد الذي عدّ دستوراً للعدل ومثالاً يُحتذى في الإدارة الرشيدة. فقد رسم فيه معالم الحكم العادل، فكان مرآة صادقة لروح الإسلام في المساواة، ورعاية الفقراء، ومحاسبة العمال.

لقد أراد الإمام أن تكون الدولة بكل مؤسساتها، وبقيادتها العليا أيضاً، نموذجاً للعدالة والمساواة. لذلك لم يرض أن يتميز بشيء عن الناس، بل جعل نفسه كأضعف فرد في الأمة، حتى يشعر كل مظلوم أنّ الخليفة يعيش معه معاناته. ولهذا لم يكن غريباً أن يقول فيه بعض المؤرخين: «كان عليّ مع الفقراء أباً، ومع الأيتام حاضناً، ومع الأرامل كافلاً، ومع الرعية أماً».

الفتوحات في عهده ورؤيته لها

من المهم أن نبيّن أنّ فترة خلافة الإمام عليّ لم تكن مرحلة توسع خارجي كالتى شهدها عهد الخلفاء من قبله، إذ شغل الإمام بإطفاء الفتن الداخلية التي أشعلها خصومه في الجمل وصفين والنهروان. لكنه مع ذلك لم يغفل عن أهمية الفتوحات واستكمال مسيرة الإسلام. فقد وجّه جيوشه بقيادة **هند بن أبي هبيرة لفتح خراسان والهند** وبعض مناطق السند وكذلك امر بحماية الثغور، وبتسيخ العدل في البلاد المفتوحة، مؤكداً أنّ الغاية ليست الغزو ولا جمع الغنائم، بل نشر رسالة الإسلام التي تدعو إلى تحرير الإنسان من الظلم. ويكفي أن نذكر أنّه عندما كتب إلى ولاته في الأمصار كان يُشدد على رعاية أهل الذمة، واحترام العهود، وصون أموال الناس، ليكون الفتح وسيلةً لإنشاء العدل لا للهيمنة والتسلط. وقد وصف المؤرخون أنّه لو أُتيح للإمام أن يتفرغ للفتوحات كما تفرغ لها من سبقه، لكان أسلوبه مغايراً، قائماً على الرحمة بالناس أكثر من السيف، وعلى إقامة دولة العدل قبل توسيع رقعة الأرض.

استشهاد الإمام عليّ عليه السلام ووصيته

في فجر التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة، بينما كان الإمام عليّ عليه السلام قائماً في محراب مسجد الكوفة، غارقاً في صلواته وخشوعه، باغته الغدر على يد عبد الرحمن بن ملجم، الذي ضربه بسيف مسموم على رأسه الشريف. ارتجّ المسجد بالصيحات، وارتفعت اصوات المصلين، لكن الإمام استقبل الضربة بثبات المؤمن، رافعاً صوته بعبارته الخالدة التي خلدها التاريخ: «فزت وربّ الكعبة». كانت تلك الكلمات شهادة ناطقة بأنّ حياته كلها كانت جهاداً في سبيل الله، وأنّ موته إنما هو فوز ببقاء ربّه.

حُمِل الإمام إلى داره متخناً بالجراح، وجيء بالأطباء إليه، فأشاروا أن غذاءه ينبغي أن يكون اللبن. فما إن سمع الأيتام بذلك حتى حملوا أوعية اللبن بأيديهم الصغيرة، ووقفوا صفوفاً عند بابه، يطرقونه وينادون: «خذوا اللبن وارجعوا لنا أيينا عليّ لقد كان المشهد أبلغ صورة عن علاقة الإمام بأمته، وعن عمق محبة الفقراء واليتامى له، فقد عاش بينهم أباً رؤوفاً، وها هم يردّون له بعض الوفاء في ساعاته الأخيرة.

ومع اشتداد أثر الضربة، جمع الإمام أبناءه وأصحابه، وأوصاهم بوصاياهم الأخيرة، التي كشفت عن سموّ روحه وعدله حتى في اللحظات العصيبة. فقد أوصى بقاتله قائلاً: «إن أعش فأنا وليّ دمي، أعفو أو أقتصّ، وإن أمت فاقتلوه ضربةً بضربة، ولا تمثّلوا به، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»

وهكذا، أبا الإمام عليّ أن يُسفك الدم بغير حق، أو أن يُقابل الغدر بالصدر، أو أن يُقابل القسوة بالتنكيل، فأثبت بوصيته أن العدل والرحمة عنده مبدأ لا يتغير حتى في ساعة النزاع مع الحياة.

وفي ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان، أسلم الإمام عليّ روحه الطاهرة إلى بارئها، بعد أن أمضى عمره كله في نصرة الحق وإقامة العدل. غسّله الإمام الحسن، ومعه أهل بيته المقربون، ودفنوه سرّاً في النجف الأشرف خشية أن ينبش الأعداء قبره ويمثّلوا بجسده الطاهر، فظل قبره مخفياً لا يُعرف موضعه إلا لخواص أصحابه حتى أعلن عنه في زمن العباسيين.

لقد كان الإمام عليّ مظلوماً حين قاوم الانحراف والفساد وأحبّبت إصلاحاته، وظلم ميتاً حين أخفي قبره خشية الطغاة. ومع ذلك، ظلّت ذكراه حيّة في وجدان الأمة، وظلّ فكره وعدله شاهدين على أن الإنسانية عرفت في عليّ بن أبي طالب أسمى مثال للزهد والشجاعة، وللعلم والعدل، وللرحمة والحزم. إن رحيله لم يكن نهاية، بل كان بداية خالدة لصفحة من نور، تشهد عليها كلماته في نهج البلاغة، وعهوده لولاته، ومواقفه التي بقيت أنشودة للعدل ورمزاً خالداً للإنسانية.

=====